تحقيق الجاحظ

أفلا يجدر بنا بعد ان أتينا على ذكر عصر الجاحظ ووصفنا أفقاً عجيباً من آفاق ذلك العصر وأُريد بذلك استفاضة العلم فأشرنا الى طائفة من الآثار التي اتصلت بميراثنا الفكري فطبعته بطوابع خاصة أفلا يجدر بنا بعد هذا كله ان ننظر في جهة من جهات ثقافة الجاحظ وهي جهة العلم .

انكم لتذكرون ما أثبته لكم في كلامي على اول عهدي بالجاحظ من رأي (رنان) في المسلمين من حيث اهتمامهم بالبحث فقد وقع في خلده ان المسلمين يعتقدون ان البحث لا طائل فيه ولا شأن له .

وقد قلت لكم في حينه ان الجاحظ قد يكون حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما عصرهم غير عصرنا فلنتفرغ في مجلسنا لتقليب النظر في هذه الحجة أهي قاطعة ام هي غير قاطعة .

كنت أُطالع من ايام غير بعيدة كتاب (مفكري الاسلام) لصاحبه البارون (كارا دي فو) Baron Carra de Vaux فانتهيت الى كلام المؤلف على الجاحظ فقد قال[1] :

« اكبر كتبه كتاب الحيوان وهو كتاب جليل أُدمجت فيه فصول كثيرة لا متعلق لها بالحيوانات قد يجمع الجاحظ فيها مايوحيه اليه حيوان من فكرة ومن ذكرى أدبية ومن شعر ومن قصة فاذا شرع القارئ في قراءة هذا الكتاب وفي نيته ان يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه ولكنه اذا قرأ دون غرض من الاغراض منقاداً الى مشيئة المؤلف غير سائله خطة مرتبة فقد يجد فيه كثيراً من لذة البال .

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٢٩٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أظن اننا نستطيع ان نستنبط من الجاحظ فلسفة او مقاييس ولكننا قد نجد له روحاً فلسفية تنسبط في أعلى هضابها وذوقاً للحياة العقلية يذهب في ابعد مداه » .

يشتمل هذا الكلام على رأيين : رأي في الجاحظ من جهة العلم ورأي فيه من جهة الفلسفة فصاحب هذين الرأيين يجرّد احد كتب الجاحظ من قيمته العلمية تجريداً واضحاً فهو لا يجد في كتاب الحيوان بحثاً علمياً عن اصناف الحيوان وانما يقرّ له بقيمة فنه وهو ما افصح عنه في قوله : قد نجد في كتاب الحيوان كثيراً من لذة البال .

وكما جرّده من فضل العلم فقد جرّده من فضل الفلسفة فهو لا يستطيع ان يستنبط من الجاحظ فلسفة او مقاييس وانما يعترف له بروح فلسفية متسعة الافياء وبحياة عقلية بعيدة المدى .

فلننظر في هذا كله أصحيح ان الجاحظ ليس له اساليب فلسفية في كل مذهب من مذاهب تحقيقه وتدقيقه فهل يدقق ويحقق دون ان يبني على اصول مرتبة وقبل ان أقلب النظر في نفي العلم عن الجاحظ رأيت من الواجب عليّ ان أبين لكم : من هو العالم وما الفرق بين علم العامة وعلم الخاصة .

عقد الاستاذ (ريشه) احد اعضاء معهد باريز في كتابه (العالم) فصلاً عرّف فيه العالم تعريفاً بيناً ولمح الى ضروب العلماء والذي يستنتج من الفصل كله ان العالم انما هو الذي يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة فهو الذي يرمي الى المعرفة[1] .

فالفرق بين علم العالم وبين علم العامي من الناس ان العامة تقتصر على معاينة الاشياء ولكن العلماء يحاولون ان يعرفوا اسباب هذه الاشياء اي ان يعرفوا مبادئها وقوانينها فقد قال ارسطاطاليس : يبتديء العلم بالعجب وينتهي بضده فالعامة لا تعجب من الاشياء التي تعاينها كل يوم وتقع عليها حواسّهم ولكن العلماء يعجبون منها ويجتهدون في البحث عن عللها فهم يريدون ان يعرفوا مثلاً لماذا لا يصعد الماء في جوف المضخة الاّ الى حدّ معلوم فاذا عرفوا علّة هذا بطل عجبهم وصاروا يعجبون من ضد هذا الامر .

فالعالم في نظر الاستاذ (ريشه) انما هو الذي ينقب عن الحقيقة المجهولة ولكن لكل

---

(١) الاستاذ شارل ريشه (Charles Richet) كتاب العالم ص ٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علم من العلوم اصولاً في التنقيب عن هذه الحقيقة فلنبحث في صدر الامر عن الاساليب التي يجري عليها الجاحظ في البلوغ الى حقائق العالم و كشف الغطاء عن غرائبه وطرائفه .

يقول ابوعثمان في مقدمة كتاب الحيوان[١] :

« وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم لانه وان كان عربياً إعرابياً واسلامياً جماعياً فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة واشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » .

لخص لنا الجاحظ في هذه الاسطر أصوله التي يبني عليها في الوصول الى معرفة الحقائق فهو يستعين بالحواس و بالعقل على إدراك الحقائق .

اما الاستعانة بالحواس فقد أشار اليها في كثير من المواطن فقوله الذي سمعتموه من قبل : ليس يشفيني الا المعاينة داخل في الاستعانة بالحواس والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق في علوم الطبيعة يضم اليه التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف فكل قول في نظره يكذبه العيان فهو أفحش خطأ وأسخف مذهباً وأدل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة[٢] .

ولم يقتصر الجاحظ على المعاينة وحدها وانما جمع بينها وبين التجربة في كثير من تحقيق الغرائب في هذا العالم وسأذكركم في مجلس آخر أنماطاً من تجربه على أصناف الحيوان ولقد وثق بهذه الطريقة الثقة كلها حتى أصبح لا يجد سبيلاً الى رد الخبر المعروف بمواترته ومرادفته الذي حققه العيان وضمت اليه التجربة[٣] .

فهو في هذا المعنى اي في الاستعانة بالحواس في التحقيق من اصحاب الفيلسوف (باكون) الذي ظهر من سنة ١٥٦١ الى سنة ١٦٢٦ فقد سعى هذا الفيلسوف في تجديد العقل فحاول ان يصلح مناحي الفكر البشري واساليبه في التحقيق فمن رأيه انه لا ينبغي لنا الاستناد الى المتقدمين لانهم لا يعاينون الامور عياناً كافياً فما ينبغي لنا ان نكون اصحاب أفكار مهيأة

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٥) .
(٢) » » » الثالث ص ١١٢ .
(٣) » » » الثاني ص ٤٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نؤمن بها فان هذه الافكار انما هي بمنزلة الأصنام فلكل حزب اصنام ولكل مذهب أصنام ولكل عصر أصنام فما ينبغي لنا ان نرى في كل ناحية من نواحي الطبيعة مزاعم فاذا كانت الشمس تدفئ فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتدفئ واذا كانت الارض تغذي فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتغذي فما يلزمنا ان نرى العالم كله متوجهاً نحو الرجل مستعداً لخدمته ، يجب علينا ان نلجأ الى المعاينة والى التجربة ثم الى استنباط نتائج عامة من الامور التي نعاينها والامور التي نجربها فالاستنباط مداره الذهاب من الخاص الى العام ومن طائفة من الامور الى وضع القوانين .

هذه فلسفة (باكون) وقوامها : التجربة والعيان ، ولئن لجأ (باكون) الى هذه الفلسفة من ثلاثة قرون فقد لجأ اليها الجاحظ من أحد عشر قرناً الا ان (باكون) توسع في أساليبه فجعل للعيان وللتجربة قواعد عامة فالتجربة في نظره ينبغي لها ان تكون متنوعة ممتدة مقلوبة .

وكأن الجاحظ رأى ان هذه الطريقة وحدها لاتضمن له الافضاء الى الحقائق لان الحواس التي يعتمد عليها في التحقيق قد تخادع في بعض الاحيان فأحب ان يجمع الى معونة الحواس معونة العقل فقال [1] :

« فلا تذهب الى ماتريك العين واذهب الى مايريك العقل وللامور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » .

فكان لا يجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار [2] .

فالأدلة والبراهين من أعمال العقل وهذه الطريقة انما هي طريقة (ديكارت) الذي ظهر من سنة ١٥٩٦ الى سنة ١٦٥٠ فان فلسفة (ديكارت) ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لاتصدق الا ما كان واضحاً ، صدق ما كان واضحاً فالوضوح انما واصل الامر في اليقين فما ينبغي لقوة من القوى الظاهرة ان يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا وما القوى الظاهرة الا السلطة والاوهام والمصلحة والاحزاب .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٩٧) .

(٢) » » » السابع ص ٤١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فما أشبه قول (ديكارت) لا تصدق الا ما كا واضحاً بقول الجاحظ : لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ولكن (ديكارت) قد تبسط في هذه الطريقة فأنشأ لها قواعد منها تجزئة المصاعب ومنها الذهاب من المبسوط الى المركب وغير ذلك .

الا ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء فقد يزعم ان العالم لا حقيقة له على امل ان يصل الى حقائق يثبتها العقل فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

واذا توسعنا بعض التوسع في التنقيب عن مذهب الجاحظ في التحقيق من جهة العقل تبين لنا انه قد يميل الى الشك على نحو ما مال اليه (ديكارت) في العصور الاخيرة وقد يجعل هذا الشك سبيلاً الى اليقين . من ذلك قوله[1] :

وزعم لي ان ابن ابي العجوز ان الدستاس تلد وكذلك خبرني به محمد بن ايوب بن جعفر عن أبيه وخبرني به الفضل عن اسحاق بن سليمان فان كان خبرهما عن اسحاق فقد كان اسحاق في معادن العلم وقد زعموا بهذا الاسناد ان الاروية تضع مع كل ولد وضعته أفعى في مشيمة واحدة . وقال آخرون : الاروية لا تعرف بهذا المعنى ولكنه ليس في الارض نمرة الاوهي تضع ولدها وفي عنقها أفعى في مكان الطوق وذكروا انها تنهش وتعض ولا تقتل ولم اكتب هذه للتقوية ولكنها آية أحببت ان تسمعها ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلماً فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ، ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات في القوة والضعف ولما قال ابو الجهم للمكي : انا لا أكاد أشك قال المكي : وانا لا اكاد اوقن ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين » .

فقول الجاحظ : اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له يشبه مذهب (ديكارت) في جعل الشك سبيلاً الى اليقين .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا مذهب الجاحظ في التحقيق في كل امر من امور العلم والدين جمع فيه بين معونة المادة ومعونة العقل فكان هذا المذهب مقدمة للاصول التي بنى عليها (باكون) و(ديكارت) في العصور الأخيرة فالجاحظ صاحب طريقة في تحقيقه ، انكم لا تجهلون قيمة الطريقة في العلوم فقد قالوا فيها انها فن استكشاف الحقيقة فاذا أراد البشر ان يصلوا الى الحقائق لزمهم ان لا يخبطوا خبطاً وان ينهجوا منهجاً قد اختطوه لانفسهم قبل التفرغ للبحث فلا يمكننا الوصول الى الحقائق الا اذا مشينا على خطة معينة اي على طريقة ومايكفينا ان نلجأ الى طريقة ما في دراسة من الدراسات وانما يجب علينا ان نستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا الصنف ففي صنف يحسن التجربة وفي صنف يحسن العقل وفي ناحية تحسن التجربة والعقل معاً فاذا تجرّد الفكر البشري من هذه القواعد ومشى دون ان يعرف مبدأ طريقه ومنتهاه او ان يعرف الطريق التي يسلكها أضاع قواه دون ان يصل الى الحقيقة .

والتاريخ يدلنا على ان الفلسفة والعلوم انما وصلت الى ما وصلت اليه بفضل الطريقة وبفضل عبقرية الذين استعملوا هذه الطريقة .

ان واضع الفلسفة وهو سقراط انما هو اول من عاين طبيعة الرجل العقلية وطبيعته الخلقية وطبق هذا العيان على درس النفس وعلى درس الخالق .

واذا تقدمت في عصرنا هذا علوم الطبيعة تقدماً عظيماً فالفضل في ذلك يرجع الى الطرائق التي وضعها (باكون) و (كلود برنار) و (باستور) واستعملها العلماء من بعدهم .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الطريقة وحدها ولكنه احب ان يمزجها بشيء من روعة الفن فما ذكر غريبة من غرائب العالم وطريفة من طرائفه الا ومعها شاهد من كتاب منزل او حديث مأثور او خبر مستفيض او شعر معروف او مثل مضروب او يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب او من اكثر من قراءة الكتب او بعض من قد دارس الاسفار وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى الهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطون الاودية [1] .

نعم ، الجاحظ صاحب طريقة في التحقيق ، ومن هذه الطريقة المعاينة والتجربة ومن

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكبر صفات المعاين التطلع فان هذا التطلع يحملنا على الاهتمام بامور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني مثل مصباح (غليله) او مثل تفاحة (نوتون) واظن اني لا احتاج الاّ الى ذكر مثل او مثلين في هذا المعنى ، من ذكرهما نتبين لكم خصائص الجاحظ في حب التطلع والاستشراف فقد يقف على الامور وقوف معتبر و يتأملها تأمل مفكر فاذا اعترض لواحد منها فلا يهدأ باله الا اذا نفذ حقائقه وعرف علله وعلم بمقادير قواه وتصرف اعماله وتنقل حالاته . قال ابو عثمان في اثناء كلامه على الفيلة[1] :

« خرجت يوم عيد فلما صرت بفساذ واذا فيل مجلل بمقطوع ومقطعات واذا برجال جلوس عليهم الاسلحة فسألت بعض من شهد العيد فقلت : مابال هذه المسلحة في هذا المكان وقد اختلط الناس بذلك التل ، فقال : هذا الفيل ، فقصدت نحوه ومالي هم الاّ النظر الى أذنيه وما كانت لي في ذلك علة الاّ شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه وكله كان شاغلاً عن أذنه التي اليها كان قصدي فذاكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي انه ابتلي بمثلها وأنشد في ذلك بيتين من شعره وهما قوله :

اتيت الفيل محتسباً بقصدي لابصر أذنه و يطول فكري
فلم أر أذنه ورأيت خلقاً يقرب بين نسياني وذكري

فهذه القصة على حقارة شأنها تصوّر لنا مقدار ميل الجاحظ الى التطلع فاذا مر بمشهد من المشاهد سأل عنه وقصد نحوه ونظر اليه وشغل قلبه به .

واليكم المثل الثاني وهو ليس بأقلّ دلالة من الاول على تطلع الجاحظ قال[2] :

« ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ابرس عندنا أطب منه فأطبقوا جميعاً على ان الجمل اذا نحر ومات فالتمست خصيته وشقشقته انهما لا توجدان فقال ذلك الطبيب فلعل مرارة الجمل ايضاً كذلك ولعله ان تكون له مرارة مادام حياً ثم تبطل عند الموت والنحر وانما صرنا نقول لا مرارة له لاننا لا نصل الى رؤية المرارة الا بعد ان تفارقه الحياة فلم اجد ذلك عمل في قلبي مع اجتماعهم على ذلك فبعثت الى شيخ من جزّاري باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري انهما ليوجدان ان ارادهما مريد وانما سمعت العامة

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٦١) .
(٢) » » » السادس ص ١٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلة وربما مزحنا بهـا فيقول خصية الجمل لا توجد عند منحره ، اجل والله ما توجد عند منحره وانما توجد في موضعها . وربما كان الجمل خياراً جيداً فتلحق خصيته بكليتيـه فلا يوجدان لهذه العلة فبعثت اليه رسولاً ، انه ليس يشفيني الا المعاينة فبعث اليّ بعد ذلك بيوم او بيومين مع خادمي نفيس بشقشقة وخصية ، ومثل هذا كثير قد يغلط فيـه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب » .

فانظروا الى مقدار ولع الجاحظ بالتطلع ، يسمع كلام اهل الصناعة على امر من الامور ويجمعون على هذا الامر فلا يعمل الكلام في قلبه فيسأل شيخ الجزارين عنه فيعترف له بصحته ولكن الجاحظ ليس يشفيه الا المعاينة فهذا الافراط في حب التطلع انما هو من صفات العلماء ومن خصائصهم وهل الفرق بين معرفة العالم ومعرفة غير العالم الا في بحث العالم عن كل علة واقتصار غيره على العيان وحده دون الاهتمام بالعلل وبالقوانين .

يقول صاحب كتاب (مفكري الاسلام) لا يجد المرء في كتاب الحيوان مبحثاً علمياً عن الحيوان .

فلنرجع الى كتاب الحيوان فهو الكتاب الذي صوّر لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر ففي شواهد كثيرة على توخي الجاحظ الوصول الى الحقائق في مباحثه وفيه بيان لمختلف أساليبه في التحقيق وفيه أنماط من نقده العلمي ومن فلسفته العلمية فضلاً عن قيمته الفنية التي نرجيء الكلام عليها الى حينه وقد ألّف الجاحظ كتاب الحيوان وهو ابن سبعين بوجه التقريب اي بعد ان اختمر عقله واستوى فكره واتسعت تجاربه ومعايناته .

فلنستخرج من هذا الكتاب طائفةً من الأقوال ولنحكم على طبائع هذه الأقوال وعلى خصائصها .

من هذه الأقوال ما يتعلق بخلق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته ، قال ابو عثمان[1] :

وليس شيء من صنف الحيوان أردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها فاذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ولم يكن ممن يستطيع

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٢٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الانسياب الى حجر أو صدع صخرة او في ذروة جبل وكانت مثل الدجاجة فان اكثرما عندها من الحيلة اذا كانت على الارض ان ترتفع الى رف وربما كانت في الارض فاذا دنا المغرب فزعت الى ذلك وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب كنحو زبرة الاسد ولبدته فانه حمل للسلاح الا في مراق بطنه فانه من هناك ضعيف جداً وقال التغلبي :

ترى الناس منا جلد أسود ساخ وزبرة ضرغام من الأسد ضيغم

وله مع ذلك بعد الوثبة واللزوق بالارض وله الحبس باليد وله الطعن بالمخلب حتى ربما حبس البعير بيمينه وطعن بمخلب يساره في لبته وقد ألقاه على مؤخره فيتلقى دمه شاحياً فاه وكأنه ينصب من فوّارة حتى اذا شربه واستفرغه صار الى شق بطنه وله العض بانياب صلاب حداد وفك شديد ومنخر واسع وله مع البرثن والشدة باظفاره دق الاعناق وحطم الأصلاب وله انه أسرع حضراً من كل شيء عمل الحضر في الهرب منه ؛ وله من الصبر على الجوع ومن قلة الحاجة الى الماء ماليس مع غيره وربما سار في طلب الماء ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ولو لم يكن له سلاح الا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه وربما كان كالبعير الذي يعلم ان سلاحه في نابه وفي كركرته والانسان يستعمل في القتال كفيه في ضروب ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه يستوي في ذلك العاقل والمجنون كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب الى الفم والمرأة اذا ضعفت عن كل شيء فزعت الى الصراخ والولولة التماساً للرحمة واستجلاباً للغياث في حماتها وكفاتها او من اهل الحسبة في امرها » .

ومن هذه الأقوال مايختص بتلوّن كل صنف من الحيوان بالوان بيئته حفظاً لحياته قال الجاحظ [1] :

حدثنا ابوجعفر المكفوف النحوي العنبري واخوه روح الكاتب ورجال بني العنبران عندهم في رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد زعموا انها اذا انتصف النهار واشتد الحر في رمال العنبر وامتنعت الارض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز او عود ثابت فيجيء الطائر الصغير او الجرادة فاذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه وقع على رأس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٣٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحية على انها عود فاذا وقع على رأسها قبضت عليه فان كان جرادة او جعلاً او بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها وان كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله اكلته وانصرفت وان ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهاجرة وذلك ان الطائر لا يشك ان الحية عود وانه سيقوم له مقام الجذل للحرباء الى ان يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب ان تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر وصلح ان يكون ملة وموضعاً للخبزة ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » .

ومن هذا القبيل ما نقله عن صاحب المنطق من ان لكل طائر يعشش شكلاً يتخذ عشه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى اختلاف صور تلك القراميص والافاحيص[1] .

ومن هذه المباحث الكلام على تأثير البيئة وقد نقل قول صنف من الناس فقال[2] :

وقال الصنف الآخر لا ننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين ودبدانها خضرا او تراها في غير الخضرة على غير ذلك وترى القملة في رأس الشاب الاسود الشعر سوداء وتراها في رأس الشيخ الابيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الأشمط شمطاء وفي لون الجمل الأورق ورقاء فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فان نصل خضابه صار فيها شكله من بين بيض وحمر وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء وقد خبرنا من لا يحصى من الناس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٦١) .

(٢) » » » الرابع ص٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم أذناب الا تكن كأذناب التماسيح والاسد والبقر والخيل والاَ كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب وربما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المشوهين والأنباط ويكونون جهالاً فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون فاذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الأذناب وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود .

وقال في التناحر على الحياة[1] :

ومن العجب في قسمة الأرزاق ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويربغ القنفذ الأفعى فيأكلها وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية والحية تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شيء يكون الخوصه على المستوى والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها .

واذا أردت الإفاضة في هذا الباب اتسعت مذاهب الكلام فأقتصر على ما ذكرت دون التعرض لما نبّه عليه الجاحظ في كتاب الحيوان او لما وصفه من غرائز أصناف الحيوان ومن إحساساتها وما شابه ذلك .

أظن أن اشباه هذه المباحث لا تخرج عن العلم وأظن ان الذي يخوض فيها لا يعبث انها لم تخل في تضاعيفها من امور جليلة تكاد تكون أجلّ مما اكتشفه علماء الطبيعة في العصور الأخيرة أمثال دارو ين ولامارك وسبنسر وأضرابهم ، من هذه الامور التناحر على الحياة والتلون بالوان البيئة وتأثير البيئة والارث وغير ذلك فكان الجاحظ يعترض لأعاجيب الطبيعة ويفكر فيها لان التفكر فيها على نحو ماقال مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة وتحليل لعقدة البلدة وسبب لاعتياد الروية وانفساح الصدور وعز في النفوس وحلاوة نقتاتها الروح وثمرة تغذي العقل[2] .

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١٠٢) .

(٢) » » الثاني ص ٣٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن لا ينبغي لنا ان ننسى ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وان العلم الحديث لا يتجاوز عمره قرناً ونصف قرن فالجاحظ مشى على آثار ارسطاطاليس وغيره من العلماء اليونانيين في رومة والاسكندرية في تلخيص المعارف فلئن لم يكتشف في علم الحيوان مكتشفات علمية فقد لخص معارف عصره فكتب كتباً علمية في اشياء مختلفة .

فقولنا لا نجد في كتاب الحيوان مبحثاً علمياً لا يخلو من شيء من المجازفة واذا نظرنا في مجلسنا الآتي في أساليب الجاحظ في التحقيق تبين لنا ان الجاحظ لا يلهو وانما يبحث وينقب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net